الارتداد إلى نقطة البداية

سوق الجمعة هذا اليوم غير كل الأسواق. اشترى أشياء تافهة أوصته بها زوجته، وفى نهاية الرحلة التسويقية، اهتدى إلى محل العصافير الشهير على أطراف السوق. دار مضطربا حول الأقفاص التى تعتقل ألواناً مختلفة من الطيور المسكينة. شعور صاعد من أعماقه يلونه الاحتجاج، وغيمات رمادية تكأكأت فى الأفق القريب، طالما أحب الحرية ونادى بها منذ أيام الجامعة. استعرض ألوانها المتوهجة حائراً، كل الألوان مبهجة للآخرين، تشد اهتمام رواد المحل المزدحم عن آخره.

اقترب منه أحد صبية المحل عارضًا عليه مساعدته. استفاق من شروده على صوته الأخنف وابتسامته الصفراء، انتبه لقبعته البيضاء وفانلته البيضاء الغاصة بالطيور. كنخاس محترف وقف أمامه القصير المكير يعدد أنواعها وأعمارها. تابع طوافه، متنقلا إلى داخل المحل، وتابع القصير شروحاته. الرفوف مليئة عن بكرة أبيها. ألوان وأشكال، رفرفات وزقزقات تغطى على ضجيج أبوق السيارات بالخارج، ببغاوات ذوات أعراف وتيجان، ومناقير مقوسة ومستوية. أقفاص بتصاميم شتى قد احترف الصانع فى أن يترك بها لمسة فنية**!!**

تغريد العصافير يبدو له كتاجر ماهر يدلل على بضاعته. لم يعد الأمر يطربه مثل الآخرين. لن يستطيع أن يعود بدون القفص مليئاً. ستسلقه بلسانها. سيقف أمامها منكمشا منتوف الريش، يرمقها بنظرات غائمة حزينة. ستنتفش وتتمدد وتفرد مروحة ذيلها تحجب عنه النور الساطع، وتفتش له فى الدفاتر القديمة، وتخرج ما يكدر صفوه. لمحه فى طرف المحل بقفصه الصغير المزخرف وشحوبه البادى، وحيدا مثله يستسلم للنعاس والكسل، متسخ الريش، ناحل القوام. الظلال المتعطشة إلى الأسر والاستحواذ تبتعد عنه متقززة. وحده الذى أثار شهيته وانتباهه. عرف من البائع أنه ذكر فرق لحاله. البقعة الزرقاء فوق منقاره هى الدليل الوحيد على ذكوريته المهيضة. أخبره البائع وهو ينقده ثمنه أنه يغرد بسبعة أصوات مختلفة. قال أشياء كثيرة عن موطنه وعائلته وألوانه. أما هو فلم يلفت نظره سوى قفصه البديع الصنع وزخرفاته البديعة التشكيل.

فاجأها به فى عيد زواجهما العشرين. فرحت به من تعشق الأغلال. رتبت له العش وفرشته بنشارة الخشب، ونظفت المساقى وملأتها بالمياه. بذرت القفص بحبوب صفراء فاقعة، وضعته بجوار حوض الأسماك، ووقفت ترصد تماوج الألوان وتداخلها الساحر. فى اليوم التالى اصطحبته إلى غرفة نومها الوردية. ولما زهقت منه ويئست من تغريده؛ دفعت به إلى الركن المهمل فى الشرفة.

تصفح ألبوم الصور القديم، استوقفته إحداها بخلفيتها السوداء وشخوصها الباهتة، وقف يلتقط أنفاسه ويرمم ذاكرته، راح يتأملها ويكمل التفاصيل الناقصة، طافت بذاكرته أيام الجامعة بألوانها السماوية، شاب يافع ينحشر فى قميص كاروهات وبنطلون شارل ستون، يقود المظاهرات ويؤججها بخطبه الملتهبة، يحرك الدماء الجامدة فى العروق. فى عامه الأول انضم إلى أسرة الحرية. حملوه فوق الأعناق وطافوا به الشوارع الملتهبة صائحين "عبدو بيه يا عبدو بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه"، وفى عامه الثالث بالجامعة كان يشدو وسط الجموع الحاشدة المطعونة فى كرامتها بقصيدة "لا تصالح".

تعثر بها بعد انفجار من انفجاراته المتواترة. كان كالبركان يخمد فقط كى يلتقط أنفاسه، ويعاود

الانفجار من جديد، وكانت كالماسة يزيدها وهج الحياة بريقا وألقا. اعترضت حممه المتدفقة بطبقة من جليد الأنثى، توقف يستطلع كتلتها الصلبة الباردة، استدرجته ببرودتها ونعومتها الأثرة إلى واديها الخصب الرحيب، كتم حرارته وجرع أول كوب ليمون بارد مع أجمل فتيات الجامعة قاطبة. أعلنت أمامه بجرأة نادرة؛ أنها معجبة به وبأفكاره النيرة، غبطته لأنه محط أنظار الجميع بحماسه وعنفوانه، وتاهت بألوانه الزاهية. نبهها وهو يتخلص من عناقها إلى الفروق الطبقية التى تطل برأسها وتقف حائلاً بينهما؛ ولم تزل بالهتاف والثورات. وضعت يدها فوق فمه كى لا يكمل. قالت له إن أباها رجل ثورى يؤمن بالتغيير، وعدته بأن أفكارهما سوف تتلاقح وتنتج خلقا جديدًا.

مرت الأيام على العصفور وهو يزداد نحولاً وصمتاً. لا يقرب القرطم ودشيشة الذرة. توقف تماما عن القفز والتغريد. أشار عليه أحد الأصدقاء -المغرم بجنس النساء- بتزويجه. لم يكذب خبرًا، وطار إلى نفس محل العصافير. اختار له أنثى ثلجية اللون، ربما تقاوم حرارته الزائدة عن الحد. استقبلها أول الأمر باهتمام وفضول، تحول سريعا إلى سعادة غامرة. راح يتقافز فى القفص ويملأ الدنيا تغريداً وتهليلاً. أكل كما لم يأكل من قبل. لم يأنف شيئا كعادته، وبدا مقبلا على الحياة. جرع كل ماء المساقى، وكانت ليلة حافلة. عادت الحياة تدب في جسده الهزيل وتلونه بألوانها. استعاد ريشه المفقود وزهت ألوانه. بانت عليه علائم القوة والعافية. فى كل المرات يضع لهما الطعام والماء فى المساقى ويقف وحيدا، يكتم أنفاسه، يطالعهما من ركن الشرفة، يقترب بمنقاره حتى يتماس مع منقارها، يتقاطعان، يزقزقان، يتهارشان، تمتزج ألوانهما، يتزاحمان ويتدافعان فى حنان بالغ، وأخيرا تستكين ناشرة جناحيها أسفل ذكرها الذى قبض عنقها بمنقاره.

أصرت على الذهاب إلى الفيوم لقضاء شهر العسل. ساقت السيارة بنفسها. طلب منها أن يتعلم كى يريحها من تعب القيادة ومشاقها. ابتسمت ولم ترد. أقاما فى الأوبرج الشهير. جلسا ملتصقين يحدقان في زرقة البحيرة. يطيران أحلامهما مع النوراس عند قوس الأفق. شرحت له الفرق بين البطة الكيشة والشرشر وهى تضغط الزناد، بينما اكتفى هو بجمع ضحاياها والدموع تخنقه. أغرقته بالحكايات عن مستقبله الزاهر، والأطفال التى سينجبونها. شرحت له كيف ستساعده بنفوذ أبيها وأمواله على القفز فوق الصعاب. عاش أياما جميلة بألوان هذا الريش. عادت السحابات الداكنة تطوقه من شتى الاتجاهات، وعاد يدمن الوقوف صامتا بزاوية الشرفة، يرمق سعادتهما ويتمنى لو أنها تستمر. فى غدواته ورواحاته يتلصص عليهما. لقد راهن فى قرارة نفسه على النهاية.

لاحظ فى الأيام الأخيرة جفوة طفت فجأة بينهما. علل الأمر بالملل. لِمَ لا وبضعة سنتيمترات تحجزهما سويًا طيلة الوقت. فكر فى اقتناء قفص آخر أكثر اتساعًا. بل أحضره بالفعل وفصلهما بعض الوقت، فى إجازة زوجية إجبارية. الرمادية الثلجية لم يتغير شيئا فى حياتها، تأكل كما هى بنهم، تغرق نفسها بالماء وتنفض ريشها فى سعادة ونزق. رويدا رويدا يبدو عليها الاقتناع بهذا القفص المتسع ورفضها العودة من جديد. أما هو فاعتراه الذبول وعلق الحزن بعينيه الخرزيتين، توقف عن التغريد، فقد شهيته شيئا فشيئا، بل عزف تماما عن الطعام. ظل يرمقها بعيون كسيرة ذليلة وهى تداعب عصفورها الجديد؛ مبتهجة بألوانه الرائعة وعرفه التاجى المقوس. فعلت خيرا سيدة الألوان والمنزل عندما حملت القفص الذى يجمعها مع غريمه بعيدا. ربما نسي مع الوقت ما كان من أنثاه الثلجية.

سألها من جديد، لماذا ترفض أن يتعلم القيادة؟ لماذا تنعته بالتهور؟ لماذ ترفض أن تزوره أمه

الريفية؟ صرخ فى وجهها للمرة الأولى ونعتها بالمتسلطة. وخزته بكلمات كالحراب؛ أشارت إلى الفروق التى بينهما، وعن عائلته الفقيرة، وعن أولاده التى كبرت بهم فى غير الأوان. فكر أن يرحل ويترك لها جنتها. درس الأمر جيدا. وازن بين كفتيه غير المستويتين.. أولاده .. بيته .. مملكته التى لا يحكم فيها .. كيف يترك كل هذا ويبدأ من اللاشئ؟ وفى صباحٍ لمساء عاصف مع ألوانها وألوان أسرتها الكريمة التى لا تنضب، فرك النوم من جفونه وقد عزم أن يخلصه من عذاباته وصمته وشحوبه. تقدم بجرأة من الشرفة، وخزت أنوار الصباح عينيه الرمداوين، اقترب منه وئيدا، شعر به، قفز من عشه المزرى يستطلع، وقف متأرجحا فوق السلك المعدنى يهز ذيله، لكأنه قد حدس مثله بأن شيئاً خطيراً فى حياته سيحدث هذه الصبيحة.

أوسد حقيبة العمل جانبا. اعتلى الكرسى الصغير بحذر. وصل إلى القفص العالق فى السيخ المعقوف بسقف الشرفة. تلاقت أعينهما للمرة الأولى. لمح فيهما دمعة مترقرقة. فتح الباب الموصد عن آخره. لن يخشى من لسانها. سينعم باللحظة التى يتوق إليها. سدد النظر إليه بعيونه الخرزية، وكأنه لا يصدق نفسه. راح يرسل نحوه نظرات غريبة لا يلمح فيها الحماس. يضرب الهواء بأجنحة ضعيفة. يتعثر فى البداية. يقع على الأسطح المجاورة. ينهض ويتعثر.. ينهض ويتعثر. يقفز قلبه مضطرباً. يتنفس الصعداء وهو يراه أخيرا تبتلعه فضاءات لا تحوى سحبا رمادية، وتتلاشى ألوانه فى أشعة الشمس المزهرة. يعود من العمل سعيدا، مدججاً بهذا الانتصار الساحق عليها. يملأ رئتيه بهواء نظيف رطب. لا يهتم بالنظر إلى تلك الثلجية العابثة وما تحدثه من ضجيج. يشعر بالنجاح لأول مرة. لقد فعل ما يجب أن يفعله منذ البداية.

يلمح شيش الشرفة مواربا. يتذكر أنه لم يغلق باب القفص جيدا. تعلو ضربات قلبه. يسكسك كفرخ صغير. ستعود بعد قليل وترتاب فى الأمر. ستغضن جبهتها وتنكر عليه هذا الفعل المشين. يلج الشرفة مبهور الأنفاس. يرغب فى مداراة آثار فعلته. فرجة صغيرة بين الأسلاك كفيلة بتفسير الأمر وتبرئته. يركن حقيبته ويتقدم من الركن المهمل. يعتلى الكرسى الصغير. يمد يده نحو باب القفص الذى يفتح إلى الداخل!!

يشاهده فى زاوية العش منكمشاً بألوانه الباهتة وريشه المتسخ. تتلاقى أعينهما، يلمح في عيونه الخرزية نفس الدمعة القديمة التى لا تفيض ولا تغيض.